د. معن زيادة

مغالطات « التعددية الحضارية » ...

كثرت في الآونة الاخيرة الاشارات الى وجـــود حضارتيـن متميزتين في لبنان ، كما كثرت الاحاديث عن مجموعات حضارية متعددة في هـــذا البلد الصغير ، فبالاضافة الى التصريحات المتعددة الصادرة عن اعضـاء واركان ما يسمى بالجبهة اللبنانية ، فـان ادبيـات هذه الجبهة ، او ادبيات احد اطرافهـا على الاقل ، الصادرة في سلسلة كراسات « القضية اللبنانية » تكفي وتغني عن كل مزيد . بل ان في كراس واحد من هذه الكراسات ما يغني عن كل مزيد .. ففي كراس « لبنان المستقبل : من الانصهار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي » نجد مـا يلـي :

« .. من احترام فروقاتنا الحضارية بدلا مـن ان نغالب هذه الفروقات ونقضي على التراث الفني والثقافي واللغوي والديني لكل فئة سعيـا وراء وحدة عضويـــة مستحيلـة » . ص ١٥ . ونجد ايضا :

« ان محاولات التنكر لهذه التعددية الحضاريـــة ، ومحاولات رفضهـا او ابتلاع بعضها ، وعدم الافادة من كل منها من اجل خلق المواطن اللبناني الاصيل المتصل بجذوره الحضارية والمحافظ على تراثه .. ان هذه المحـاولات الخاطئة ، لتذويب هذه الشخصيات الحضارية فـــي شخصية وهميـة واحدة ذات طابع مستورد ادت الـــى الهزال الثقافي والافلاس السياسي والانقطاع عن التراث الذي نراه اليوم في بلادنا وجعلتنا متلهين بتوافه قواسم مشتركة قيل انهـا جامعة ، بينمـا نقلت بالفعل تعاسة المساومة السياسية الى الحقل الثقافي والحضاري ».. ص ١٧ .

الحرب جاءت دليلا صارخا يضاف الى شواهد التاريخ البعيد والقريب على ان وجود المسيحيين في لبنان، كمجموعة حضارية حرة مهددة بالزوال وعلى ان الهدف الاخير الذي ينبغي الا يغيب لحظة واحدة عن اهتمامهم هو المحافظة على هـذا الوجود السياسي السامح لهم بممارسة رسالتهم ودورهم وريادتهم الحضارية ، مهمـا كانت التضحية » ص ٣٦ .

هذا التركيز والتأكيد على المجموعات الحضاريـة ، والشخصيات الحضارية ، والتعددية الحضارية ، والريادة الحضارية ، يستند الى فكر يخلط بين مفهومين متمايزين: مفهـوم الثقافة ومفهوم الحضارة .

فالثقافة ، كما يرى الدكتور عبدالعزيز الحبابي في كتابه « من المنغلق الى المنفتح » هي مجمـــوع القيم ، ومجموع اساليب الحياة العملية والنظرية التـي يسلكها او يأخذ بها شعب من الشعوب خلال تاريخه ، فهي التجسيد لعبقرية شعب من الشعوب في عمله ونظرته الى العالـم وتقاليده وتصرفاته . اما الحضارة فهي تجلي عبقريات عدة شعوب على الاقل او اكثرهـا او جميعهـا في جهودهـا ومساعيهـا المتضافرة على توالي العصور التي شهدهـا التاريخ الانساني ، بل ان بعض المفكرين يذهب الى القـول بأن هنـاك حضارة انسانية واحدة فقط . واذا كان هذا يصدق على التراث المشترك لجميع الشعوب الى حد بعيد، فانه يصدق دون شك ، على ما نسميه بحضارة القــرن العشرين ، حضارة الثورة العلمية التكنولوجية التي هـي نتاج الجهود الانسانية المشتركة منذ فجر التاريخ الانساني، والتي تمخضت عبر عمليـة جدلية واسعة تعكس نفسها على جميع الشعوب في عملية جدلية واسعة اخرى .

والحضارة انمـا تحيا بالعناصر المتنوعة التي توفرها لها ثقافات الشعوب المساهمة فيها ، فهي ليست كيانـــا مستقلا بشعب دون شعب ، لان الحضارة ينسجها التاريخ،

والتاريخ صيرورة دائمة تتخطى حواجز الكيانات .. فكثرة العناصر وتنوعها ضمن الوحدة ، تلك هي الثقافات ، اما عملية اندماجها وانصهارها فتلك هي الحضارة ، فهي - اي الحضارة - انسانية شاملة .

وكلما ادركت الثقافة القومية او المحلية اصالتها ، شعرت بضرورة الانفتاح ، لانها انما تتكامل بالانفتاح على الثقافات الاخرى .. من هنا كانت الصلة بين الحضارة والثقافة وثيقة جدا ، دون ان تعني هذه الصلة انهما نفس الشيء ، فالثقافة ليست كيانا موحدا ينعم باستقلال تام عن الثقافات الاخرى التي تسبقه او تليه او تتواجد معه ، بحيث ان كل ثقافة تشكل كيانا فريدا من نوعه يستحيل فهمه على ابناء الثقافات الاخرى والمشاركة فيه .

واذا كانت الحضارة تجد قوامها وغذاءها في ثقافات الشعوب المختلفة ، فما ذلك الا لان الحضارة هي مجموع الثقافات المتنوعة الناجمة عن نشاط البشر الذين توصلوا بكفاحهم المشترك والمستمر الى ضمان تفوق الانسان على الطبيعة وسيطرته عليها . انها تستند الى تاريخ الانسانية العام وهي نتيجة مساهمات مباشرة وغير مباشرة من جميع الشعوب الماضية والحاضرة ، فهي تتخطى الاطر الاقليمية الى الدائرة الانسانية الواسعة .. (قارن الدكتور عبدالعزيز الحبابي : من المنغلق الى المنفتح ص ١٩ وبعدها) .

بعد هذا التعريف بمفهومي الحضارة والثقافة ، يمكن القول ان الفكر القائل بوجود تعددية حضارية او شخصيات حضارية او مجموعات حضارية في لبنان ، انما يخلط بين الحضارة والثقافة خلطا تعسفيا . فحتى لو قبلنا بالقول بوجود حضارات متعددة في الماضي فانه يصعب القول بوجود حضارات متعددة خارج دائرة الحضارة العلمية الحديثة الواحدة التي تسعى كافة الشعوب المختلفة للمساهمة فيها والاستفادة منها . في عملية جدلية ينصهر فيها الاخذ والعطاء في كل موحد .

بل ان الاصرار على التعددية الحضارية انما هو عود الى الوراء لا تبرره حتى تلك الظروف القاسية والحرب الوحشية التي عاشها لبنان ، فالاجابة على ماجرى ويجري في لبنان لا تكون باختراع حضارات وهمية نتقاسمها بل بالتطلع الى الحضارة الواحدة نساهم فيها وننهل منها . ان الاجابة على ما جرى ويجري في لبنان لا تكون بالتأكيد على وجوه الخلاف حتى لو وجد بعض هذه الوجوه .. لا تكون بالنظر الى الماضي ونبش قبور التاريخ بل تكون بالنظر الى المستقبل ، فان اهم ما يربط الشعب الواحد ويوحد قواه للمساهمة في الحضارة عن طريق ثقافته انما هو الارادة المشتركة والمصلحة الواحدة .

فهل انتهت الارادة المشتركة ؟ وهل انتفت المصلحة الواحدة ؟

لا شك ان الارادة المشتركة قد تعرضت في السنوات الاخيرة للاهتزاز والارتباك وذلك بفعل عوامل متعددة منها الجديد ومنها القديم . اما الجديد فيتلخص في التطورات المتعلقة بالقضية الفلسطينية ، واما القديم فيتجسد باختصار في الميثاق الوطني ، تلك الصيغة الفقيرة والهزيلة للتعبير عن الارادة المشتركة . الصيغة التي تقلص الوطن وتجعل منه شركة نتقاسم فيها الغنائم ونختلف عليها . وفي كل الحالات فان ارتباك الارادة المشتركة ، الذي يدفع بالبعض الى الاخذ بالتعددية ، انما يعود لاسباب سياسية لا لاسباب حضارية او حتى ثقافية .

اما المصلحة الواحدة، فانها ، دون شك ، ما زالت قائمة . فليس من مصلحة اللبنانيين - كل اللبنانيين - ان ينقسم او يتقلص او يتقزم بلدهم الواحد . لماذا ؟ على الاقل لان المستفيد الاول والوحيد من التقسيم والتقزيم انما هو العدو الصهيوني الذي كان وما يزال يسعى لانشاء كيانات عنصرية او دينية تبرر وجوده ، وتبشر بنظرية طالما سعى اليها وهي ان منطقة الشرق الاوسط ، او منطقة الهلال الخصيب على الاقل ، هي منطقة كيانات طائفية وان نمط العيش الوحيد فيها انما هو التواجد في كيانات دينية او عنصرية منعزلة . ان ما جرى وما يجري في لبنان لا يعود لانتفاء وجود المصلحة الواحدة وانما يعود لعوامل خارجية لاسرائيل نصيب كبير فيها كما نعرف جميعا . لمصلحة من كل ما جرى في لبنان ؟ هل هو لمصلحة لبنان واللبنانيين ؟ لمصلحة من اغتيل الشهيد الكبير كمال جنبلاط في فترة أخذ فيها لبنان يضمد جراحاته الاليمة البالغة ؟ أليس من المعقول ان يقوم اولئك الذين اغتالوا كمال جنبلاط باغتيال خصم كبير له ثم يتهم في ذلك ابناء الطائفة الدرزية او اطراف الحركة الوطنية ، كل ذلك بهدف اغتيال لبنان ووحدته كما اكد اكثر من طرف واحد عالم بحقائق الامور ؟

وقد ينجرف وراء فكرة تقسيم لبنان بعض المخلصين من اصحاب النوايا الطيبة ، كما قد تستهوي فكرة التعددية الحضارية بعض اللبنانيين . الا ان الحقيقة تبقى واحدة وهي انه لا بد من رفض فكرة التقسيم ورفض فكرة التعددية الحضارية التي يستتر وراءها التقسيم: اولا حتى لا نقع في حبائل العدو الصهيوني ، عدو كل اللبنانيين ، وحتى لا توضع في مواقعه وثانيا لان ذلك كله ضد مصلحة لبنان وضد مصلحة اللبنانيين جميعا .

اما اذا كانت التعددية تستخدم كسلاح ابتزاز : اما ان تقبلوا بلبنان الذي نريد واما التقسيم ! فان ذلك ليس من القيم الديموقراطية والقيم الحضارية على الاطلاق . اضف الى ذلك انه اخطر سلاح يمكن ان يستخدم في لبنان ، ونتائجه حتما ليست في مصلحة لبنان ولا اللبنانيين .

واما اذا كان القائلون بالتعددية الحضارية انما يقصدون التنوع الثقافي او التعدد الاتني ، فان التنوع

الثقافي يمكن ان يكون في المجتمع الواحد ، وشواهد التاريخ كثيرة : المجتمع الاموي ، والمجتمع العباسي ، والمجتمع الامريكي ، بل والمجتمع الفرنسي المعاصر .. كلها شواهد على امكان قيام التنوع الثقافي في المجتمع الواحد دون التعرض لوحدة المجتمع .. وكذلك الحال في التنوع الاتني الذي يوجد في كثير من المجتمعات المعاصرة : كندا ، والولايات المتحدة ، وايران ، ومراكش ، ومصر وغيرها . بل انه يوجد في اكثر المجتمعات المعاصرة ، دون ان يعني ذلك ما يعنيه عند القائلين بالتعددية الحضارية في لبنان .

يبقى ان يكون سبب التعددية تفوق دين على دين . وهذه مقولة خطيرة تخلى عنها من دعا اليها من المستعمرين والمبشرين . في سنة ١٩٢٧ وما تلاها كتب اللورد كرومر يعزو للاسلام سبب التخلف الاجتماعي والاقتصادي في البلدان العربية . والى جانب هذا تجاسر المبشر « فندر » البروتستانتي على الاسلام تجاسرا غير لائق ، فرد عليهما وجاراهما في عدم اللياقة بعض المسلمين . الا اننا نعتبر ان هذا كله من مخلفات العصور الوسطى ومخلفات الاستعمار مما لا يليق بأحد في عصرنا العودة اليه .

وبعد هذا واهم منه فان « الريادة » الحضارية لا تكون بالانشطار او الانسلاخ او الانعزال او ما شئت من تعابير بل تكون بالانفتاح والتحرر من الافكار المسبقة والمسلمات الخاطئة والتطلع الى مستقبل اكثر شروقا واكثر سعادة لبني الانسان . اما التركيز والتأكيد على الفروقات الحضارية والثقافية فانه لا يخدم اي فصيل لبناني . ثم اين هذه الفروقات الحضارية او حتى الثقافية ؟ لعل القائلين بالتعددية انما يقصدون ان المسيحيين في لبنان كانوا على صلة بالغرب وبالحضارة الحديثة اكثر من المسلمين وقبلهم . وقد يكون هذا صحيحا ، الا ان اللبنانيين اليوم — في عصر انتشار دائرة العلم والمتعلمين — من مسيحيين ومسلمين ، يتقاربون بل قل يستوون في اتصالهم وعلاقتهم بالحضارة الحديثة . واذا كان هناك من فروقات فانها دون شك لا تبرر الادعاء بالتفاوت الحضاري . وعلى كل حال فان التفاوت الحضاري لا يعني التعددية الحضارية .

ويصدق على التعدد الثقافي ما يصدق على التعدد الحضاري ، فعندما اجتهد شارل مالك في تحديد خصوصيات لبنان في كتابه « لبنان في ذاته » وجد ان هذه الخصوصيات تشمل لبنان الكيان الواحد ، كما وجد ان الخصوصيات الثقافية او التراثية تتلخص بالعتابا والسندبانة والزلغوطة والتبولة والزبيب وما شابه ، وهذه لا تشكل ثقافة بمعنى الكلمة بل يصح عليها اسم الثقافة المحلية او الجانبية او الهامشية Subculture . وشارل مالك نفسه يعترف ان دور لبنان الثقافي متواضع جدا وان بعض « المفشطين » يطلق عبارة « بلد الاشعاع » بكثير من المبالغة ، ويقول ان هذا الدور الثقافي يتلخص بمؤسسات لبنان التعليمية من جامعات ومعاهد وبصحافته ومطابعه وباسهام اللبنانيين في النهضة العربية الحديثة . وهذا كله لا يعني بحال من الاحوال وجود تعددية ثقافية . (قارن شارل مالك : لبنان في ذاته ص ٢٩ وما بعدها) لان دور لبنان الثقافي يشترك فيه جميع اللبنانيين لا فريق واحد دون غيره .

يضاف الى ما كل ما سبق ان الفكر القائل بالتعددية الحضارية انما يستند الى مقولة وهمية اساسية وهي الادعاء بأن البديل الوحيد للانشطار او التقسيم انما هو حكم الاسلام . لنستمع هنا الى بعض ما جاء في عرض مقولات هذا الفكر ، جاء في كراس « لبنان الكبير مأساة نصف قرن » ما يلي :

« بقاء لبنان بصيغته الحاضرة يحتم اذن احد امرين : اما ان يتنازل المسلمون عن اسلامهم ليبنوا مع المسيحيين دولة علمانية عصرية ، وهذا غير وارد بالنسبة الى المسلمين ، واما أن يرضى المسيحيون بحكم اسلامي ، مع ما يستتبع ذلك » . ص ٥ وايضا :

« فما من أحد حتى اليوم حدد العروبة بغير ما يؤول الى قيام الدولة الاسلامية .

وما من تحديد أعطي وُجد النصارى ان لهم نصيبا فيه » ص ١٢ . أضف الى ذلك :

« واذا كان الاسلام هو العروبة والعروبة هي الاسلام فما شأن المسيحيين بهما ؟

وأين المساواة التي تخبئها العروبة لهم ؟ .. فهل من المعقول ان تطلب منهم العودة من جديد الى حكم اسلامي او الى حكم عربي مرشح لان يكون اسلاميا حالما تسمح الظروف بذلك . » ص ١٥ .

والخلاصة في نفس الكراس :

« من كل ذلك يمكن ان نستنتج ان الصيغة اللبنانية الحالية غير قابلة للعيش ، وان الجيل الذي حاول بناء دولة معاصرة منذ سنة ١٩٤٣ حتى اليوم جيل عمل في الفراغ . فالمسلمون الذين رفضوا منذ البدء الالتحاق بدولة لبنان الكبير ما زالوا يعتبرون انهم سلبوا حريتهم وان الحكم الذي اخضعوا له هو حكم مسيحي ماروني لا يتفق في حال مع ما يأمرهم به دينهم » . ص ٢٢

وأيضا

« ولهذا كانت اعادة النظر في الصيغة اللبنانية الحالية امرا ملحا . فالصراع بين لبنان والاقضية التي الحقت به لن يتوقف — فهي لن تسجم فيه الا اذا سيطرت عليه واسلمته (اي جعلته مسلما) . ومن حق اللبنانيين أن يرفضوا صيغة تمحو شخصيتهم وتقضي على حضارتهم .. وتحول بينهم وبين رسالة ثقافية وحضارية اضطلعوا بها يوم كانوا احرارا في بلدهم .. » ص ٢٤ .

وهذه المقولة الوهمية نفسها تتكرر في الكراسات

الاخرى ، ففي كرّاس « الاسلام السياسي وهوية لبنان » آب ١٩٧٦ مثلا يقول امين ناجي ما يلي :

« ان علاقة الاسلام بالعروبة ليست عرضية ولا سطحية ولا ظرفية » علاقتهما علاقة عضوية مستمرة . انها علاقة العلة بالمعلول . فالعروبة لا تقوم ولا تبقى ولا يمكنها ان تحيا لحظة واحدة اذا لم يكن الاسلام نسغها الذي يغذي كل خلية من خلاياها » . ص ٣٠

ثم يخلص امين ناجي الى القول :

« لا عروبة لولا الاسلام ، ولا استمرار للعروبة لولا الاسلام » ص ٤١ .

ويخلص ايضا الى ما يلي : اسلام المسلم لا يكتمل الا بالنظام الاسلامي » ص ٤٦ . وهكذا الى آخر ما هنالك من تفاصيل .

بعد عرض هذه المسلمة الوهمية نقول :

لعل المشكلة الاولى في الفكر العربي الحديث ، هي مشكلة المواجهة بين القانون الالهي او الشريعة وبين القانون الانساني او القانون الوضعي . بل ان تاريخ الفكر العربي الحديث يدور مباشرة وغير مباشرة حول هذا الموضوع الرئيسي .. وقد حل خيرالدين التونسي ورفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهم هذه المشكلة حلا مبسطا عندما قالوا انه لا تعارض بين الشريعة والتطور الحديث .. الا ان اجابات المفكرين بعد هؤلاء اخذت تنتقل من البساطة الى التعقيد ، فعندما جاءت مدرستا الافغاني والكواكبي كان الاستعمار قد أصبح صفة رئيسية من صفات الغرب، وكانت الدولة العثمانية قد انجرفت اكثر فاكثر نحو التخلف والاستبداد معا في نفس الوقت . فكان طبيعيا ان تأتي الاجابة مختلفة نسبيا عن اجابة التونسي والطهطاوي ، فبعد الانسجام شبه الكامل بين الشرعتين الالهية والانسانية كان لا بد من الانكماش الى الداخل من اجل الوحدة الداخلية ، والانفتاح الى الخارج من اجل الحرية والتقدم .. ومع محمد عبده ومدرسته كان السؤال ما يزال مطروحا كيف نحافظ على الشريعة وكيف نجعل المدينة فاضلة في نفس الوقت ؟

كانت مساهمة قادة الاصلاح الديني هؤلاء في السياسة كبيرة جدا ، فالكواكبي مثلا كان يدعو الى الاشتراكية في عصر الغنى الفاحش والاستغلال الظالم ، وكان ينادي بالقومية العربية واستقلال العرب عن سيادة الدولة العثمانية ، وكان ايضا يحاول التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، وهو ينادي المسلمين والمسيحيين قائلا: « دعونا نتدبر حياتنا الدنيا ، ونجعل الاديان تحكم في الآخرة فقط » .

اما محمد عبده وعبدالحميد بن باديس فكانا يدعوان الى اسلام لا يتعارض مع العقل ومع منطق الحضارة العصرية ، فقد ذكر محمد عبده ان اصول الاسلام التي تنبني عليها طبيعته ثمانية اهمها ان النظر العقلي هو وسيلة تحصيل الايمان الصحيح وان العقل مقدم على ظاهر الشرع ، وهكذا راح يساير ركب الحضارة ويطلب العلوم الصحيحة ويحث على تعلم اللغات الاوروبية الحديثة .

ومع هذا كله فاننا نقول ان قادة الاصلاح الديني هؤلاء قد اعتقدوا ان اصلاح الدين كفيل باصلاح السياسة فجاءت محاولتهم اصلاحا نسبيا للدين دون اصلاح فعلي للسياسة . الا ان المشكلة كانت حتى في ايام هؤلاء تأخذ شكلا جديدا . فقد اخذت العلوم الحديثة والنظريات السياسية تتسلل الى المجتمعات الاسلامية وزاد اتصال الشرق بالغرب عن طريق الاهتمام بالتعليم وارسال البعثات العلمية . وشيئا فشيئا لم تعد المشكلة المركزية في الفكر العربي الحديث هي كيف نحافظ على الشريعة بل كيف نحفظ المجتمع ونجعله قويا .. في هذه الفترة او المرحلة لم يعد الاسلام – كما يقول البرت حوراني في كتابه A Vision of History رؤية تاريخية – العامل المنظم لحياة الجماعة بل كان عاملا مساعدا من عوامل القوة ..

لقد بدأت هذه المرحلة قبل سقوط الخلافة ، الا ان سقوط الخلافة جاء ليثبتها ويؤكد انفصال الدولة عن الدين . وهو حدث خطير اثار الذعر في قلوب المحافظين والسلفيين . وقد انبرى الشيخ علي عبدالرازق ليشرح لهؤلاء : ان الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس في اصول الشريعة ما يوجبه ، فليست الخلافة ولا القضاء ولا وظائف الحكم ومراكز الدولة من الدين في شيء .. لقد ترك الدين هذه الامور ليرجع فيها الناس الى احكام العقل وتجارب الامم وقواعد السياسة . اما الرسول فليس الا « بشيرا ونذيرا » ليس الا .

وبرغم اصرار بعض المسلمين ورفضهم فان زحف الحضارة الحديثة والتعليم العلماني قد جاء ليؤكد انفصال الدين عن الدولة ويحوّل الانظار من الشريعة الى القانون الانساني . وقد ادت هذه القفزة الى تضعضع فكرة المجتمع الاسلامي في اذهان الناس ثم اختفائها تدريجيا او بهوتها بحيث اصبح تطرح ابان المناظرات السياسية وليس على صعيد برامج الدولة السائرة في طريق التحديث .. فحتى في الدول التي قامت على اساس مذهب او طريقة او مدرسة دينية كالوهابية والسنوسية والمهدية ، فاننا نجد ان اكثر القوانين السائدة والاعراف السائرة المنظمة لحياة الناس ، انما هي وليدة الحياة العصرية .. فلقد تحدى الولاء للامة والوطن والجماعة والدولة وخاصة الولاء للمصلحة الولاء الديني واستبدل المجتمع الديني ، وما يزال يستبدل ، بنماذج اخرى من الحياة المجتمعية دون ان يعني ذلك ان معركة التحديث قد انجزت فنحن ما نزال في صميم هذه المعركة .

اما فكرة الامة فقد توضحت بعد فترة من التردد وعدم الوضوح على انها المشاركة في اللغة الواحدة ، تلك

المشاركة التي اصبحت تعني للمنادين بالقومية العربية المشاركة في رباط هو اهم من الرابطة الدينية .

واذا كانت عملية التطور هذه من المجتمع الديني الى المجتمع القومي قد ولدت في خضم الرغبة الملحة عند المسلمين في اصلاح امور دينهم في وضع تفسيرات جديدة للاسلام مختلفة عما هو سائد ومتعارف عليه ، واخذت شكل نقل مركز الثقل من الاتراك الى العرب ، فلا يضير القومية العربية في شيء . فكل المجتمعات الاوروبية الحديثة خرجت الى طور الاستقلال من خلال منازعات داخل الكنيسة اولا ومع الكنيسة بعد ذلك .

ان ما اطاح بالخلافة العثمانية في عصر بزوغ القوميات اكثر من اي شيء آخر ، انما هو تلك القوميات التي ظهرت داخل الامبراطورية العثمانية من قومية تركية الى عربية الى كردية الى البانية وارمنية . ومن دون شك فان الحلقة المركزية التي تحكم فكر هذه القومياتليست علاقة المجتمع بالقانون الالهي او الشرعي ، ولا علاقة الاخوة الدينية ، بل هي بناء الارادة الواحدة .ذلك ان المجتمع الحديث يتطلب مشاركة من ابنائه اكثر بكثيرمما يتطلبه المجتمع الديني ، ومن هنا فان حركات الاستقلال الوطني والحركات القومية كانت مرتبطة بحركاتالمطالبة بالحياة الديموقراطية والحياة البرلمانية .

يضاف الى ذلك ان هذا كله قد ارتبط بحركة علمنة واسعة ساهم فيها العرب المسيحيون بنصيب وافر الى جانب المسلمين. هناك اولا الدكتور شبلي الشميل (١٨٨٤) الذي كان يرى ان العقل البشري وحده كاف لتزويد الانسان بالمعطيات التي تكفل له بناء شخصيته ومجتمعه ، وان الالهام الالهي – كما يسمونه – لا يصلح لان يكون قاعدة مكينة للمجتمع لانه اتى في حقبة لاحقة بالنسبة الى الشرع والدولة . وهو يعني بذلك ان المجتمعات نظمت شؤونها حتى قبل ورود الشرائع والكتب الدينية . لقد كان شبلي الشميل متأثرا ومعجبا بافكار داروين ورينان ولوازي وامثالهم وعن طريقه تسربت افكار هؤلاء الى البلاد العربية ، فلقد كان رائدا من رواد العلمنة الواعية .

ويليه فرح انطون (١٩٠٧) ذو الثقافة الفرنسية فأخذ بمذهب رينان دون ان يصرح بذلك . ولقد نشرفرح انطون كثيرا من افكاره في مجلة « الجامعة » واعلن تبنيه لنظرية « لوازي » التاريخية وتعاون مع ارباب « العروة الوثقى » لانه كان يهتم بالنهضة العربية ويؤمن ان الاديان لا تصلح لان تكون اساس نهضة قومية صحيحة .

وقد اسهم في هذا التيار حافظ طرزي وملحم خليل عبده وقيس لبكي وغيرهم . ثم جاء سلامة موسى ليعلن : « اذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لانها تقوم على اصل كاذب ، فأن الرابطة الدينية وقاحة ، فاننا ابناء القرن العشرين اكبر من ان نعتمد على الدين جامعة تربطنا . » وتبعه طه حسين مؤكدا ان الدين وكذلك اللغة لا تصلحان اساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين دولة ، لان قوام الدولة هو المنافع العملية . (قارن اغناطيوس هزيم « شواغل الفكر العربي المسيحي منذ ١٨٦٦ » في كتاب الفكر العربي في مائة سنة .

وهكذا انتقلت حركة العلمنة الينا دون ان يرافقها التقدم الملحوظ على صعيد العلم والسياسة . لقد كانت الحكومات المنتخبة في اوروبا وسيلة لخلق الارادة الايجابية الواحدة ، ولعل ما كان ينقصنا هو تلك المشاركة الفعالة التي يتطلبها المجتمع الحديث من مواطنيه . ففي غياب الحياة الديموقراطية الصحيحة ، ليس في لبنان وحده بل وفي كافة الاقطار العربية ، تلك الديموقراطية التي تحول الارادة والرغبة في العيش المشترك وما زالت العلمنة تواجه بعض الصعوبات .

الا ان المهم في هذا كله ان المسلمات القائلة بأن « اسلام المسلم لا يكتمل الا بالنظام الاسلامي » و« اما ان يتنازل المسلمون عن اسلامهم ليبنوا مع المسيحيين دولة علمانية عصرية ، واما ان يرضى المسيحيون بحكم اسلامي» وما شابه ذلك ، فهي مسلمات لم تتوقف عند فكر عصر النهضة ولم تستوعب تطلعاته وما زالت تستوحي معطيات القرون الوسطى . وسواء صدرت هذه الافكار والادعاءات عن مسلمين ام عن مسيحيين فان اصحابها ما زالوا ابعد من ان يستوعبوا القفزة الكبرى التي اقدم عليها الفكر العربي ، والتي تميزت بالتخلي عن الرابطة الدينية كرابطة تحدد هوية الانسان السياسية .

اضف الى هذا كله ان الدين قد يساهم في توحيد المشاعر الدينية بين الناس ، وقد يلعب دورا في اذكاء الشعور القومي ، الا ان الامر يختلف تماما عندما يكون الدين عالميا كالمسيحية والاسلام .. فمن طبيعة الدين العالمي ان يخلق مشاعر عالمية ، لا بل مشاعر لا قومية كما يقول البرت حوراني في كتابه المشار اليه اعلاه .

واذا كان بعض المسلمين في لبنان ما زال يعارض العلمانية في الدولة خوفا على زوال بعض الاحكام الدينية المتعلقة بالارث وبالزواج ، فان هذا لا يعني ان المسلمين في لبنان يطالبون بحكم اسلامي ، وان طالب به بعضهم القليل . كما ان هذا لا يعني ان الاختيارات الوحيدة المتوفرة امام اللبنانيين تتلخص في اختيار الدولة العلمانية او اختيار الحكم الاسلامي او الانفصال . ولعل الاختيار الاقرب الى المعقول هو تطبيق العلمانية الا في امور الارث والزواج حيث يترك للمواطن حق الاختيار . وهذا ما تأخذ به بعض الدول الضالعة في التقدم والتطور ، ففي كندا مثلا يترك للمواطن حق الخيار بين الزواج المدني او الزواج الديني وكلاهما زواج رسمي معترف به من السلطات الحكومية . كما ان امور الارث متروكة لوصية المورث التي يمكن ان تكون بحسب الاحكام الدينية او بحسب رأي المورث الشخصي ، ولا تتدخل الدولة الا لتستوفي ضرائبها وحقوقها ، على الافراد . فالمسلم في

كندا مثلا يستطيع ان يتزوج ويورث بحسب الانظمة الاسلامية دون ان يكون نظام الحكم في كندا اسلاميا ، وكذلك الحال في كثير من دول العالم الاخرى .

يبقى بعد هذا ان اصحاب التعددية الحضارية كانوا بحاجة ملحة لاصدار الاحكام التعسفية لكي يبرروا قضية سياسية لا قضية حضارية ،وهي قضية اللامركزية او نظام الكانتونات او الانقسام السياسي والجغرافي .. ف (اسلام المسلم لا يكتمل الا بالنظام الاسلامي) وغيره من احكام مماثلة لا يحق لا للمسلم ولا غير المسلم اصدارها، لان اسلام المسلم انما يكتمل بالشهادة فقط ، وقد كان الرسول يكتفي بشهادة الرجل ليعلنه مسلما . اما الايمان فهو قضية اخرى معلقة . فالاسلام اوسع من ان يخضع لتفسير واحد فقط .. انه كالفلسفات الكبرى وكغيره من الاديان يجتهد اتباعه في تفسيره وقد يتفقون في امور الا انهم لا بد ان يختلفوا في امور اخرى ..

يضاف الى قضيتي ، ان الفكر القائل بالتعددية الحضارية يخلط بين الثقافة والحضارة ، وانه فكر يستند الى مقولة وهمية ، قضية ثالثة وهي انه فكر عنصري او انه يتميز بنزعة عنصرية متعالية . ونكتفي هنا باقتباس واحد طويل لنبين ما نقول . جاء في كراس لبنان المستقبل من الانصهار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي ما يلي :

« كرنفال اللغة العربية

زادت (اي اللغة العربية) في مرضية العقل العربي ودفعته الى الانحرافات التالية التي لن يمكنه التخلص منها :

١ — انه عقل غيبي ، مغرور ، طفولي في حماسه ، سخيف في كبريائه ، ساذج في ادعاءاته وامتداحه لصفاته وعظمته .

٢ — عقل سلفي يتطلع فقط الى الماضي والى مقابر الزمن ولا يعرف الا محاكاة الايام الغابرة .. ولا يجرؤ على قرع باب المستقبل بطريقة ثورية بروميثية،وعلى دخول التاريخ للمساهمة في ثورته ..

٣ — عقل ما يزال في مرحلة الشعوذة والسحر . سحر الكلمات وشعوذة اللغة .

لذلك كل الواقع يتحقق عنده في رنة الكلمة فقط، وما همّ ان كانت معطيات هيكلية اللغة ذاتها لا تعطي الا العقل المتخلف . فأي عقل هو هذا الذي يكون فيه الفاعل مستترا وجوبا او جوازا ، لتضيع المسؤولية (المؤامرة ، المخطط ، الصهيونية) اي عقل هو هذا الذي يبني عمادته الفكرية على الفعل الماضي .. اما الحاضر ففير موجود . لذلك لن يعرف ثورة حضارية تقنية او فكرية حقة . حتى ان الفعل الماضي لم يدخل مجرى التاريخ بل انه بقي ناقصا وهذا شيء رهيب . كيف ان الماضي لم يكتمل بعد ؟ ايمكن ان يقبل العقل بهذا الخلف ؟ فعل ماض ناقص ..» ص ٣١ — ٣٢ .

اذا كان من المتعسف الادعاء بأن ثقافة شعب ما هي ملك خاص له ، فأنه لاكثر تعسفا الادعاء بأن شعبا ما يملك من الخصائص والمؤهلات الفطرية ما يجعله فوق غيره من الشعوب الاخرى ، اما الاسوأ من هذا وذاك فهو اتهام شعب ما بأنه دون غيره من الشعوب فعقله غيبي وعقله سلفي وعقله ما زال في مرحلة الشعوذة والسحر !

ان تفكيرا من هذا النوع لا يخلو من ان يكون ذا نزعة سياسية عنصرية تعسفية ، فبأسم علم مزيف للطبيعة البشرية وللفكر والثقافة وباسم تحليل مزيف للغة من اللغات تشوه طبيعة الانسان بغية تبرير تفرد شعب ما بخصائص او مميزات . وما هذا الا ستار لتغطية الايمان بالتمييز العنصري البغيض . لقد كانت بلادنا وما زالت الى حد ما ، مليئة بالمبشرين والمرسلين الاجانب الذين يؤمونها وينظرون اليها كبلاد متأخرة وانها تفتقر الى نور الهداية . كما يقول اغناطيوس هزيم . بل ان هؤلاء ينظرون الى المسيحيين الشرقيين من ارثوذكس وسريان واقباط على انهم يفتقرون الى النور والهداية . (اغناطيوس هزيم : المرجع السابق ص ٣٧٩) ولقد ترك هؤلاء افكارا عنصرية واستعمارية ما زالت تلقى الاذان الصاغية عند البعض .

ولما كان رد هذه القضية يتطلب البحث في امور اللغة والعقل كما يتطلب الخوض في علم الالسنيات Linguistic فاننا نكتفي هنا برد عام .

لقد وصف البرت حوراني في كتابه الفكر العربي في عصر النهضة اصحاب هذا الاتجاه بأسلوبه الساخر عندما قال متحدثا عن الشعراء شارل قرم وميشال شيحا وسعيد عقل انهم اصحاب حماس مألوف في الحركات القومية عندما يدعون ان لبنان قد لعب دورا فريدا في انشاء الحضارة العالمية . ففكرة النشاط الاقتصادي ، والتفكير المجرد ، والمحبة المسيحية ،وتجسيد الحقيقة في الكنيسة . وفن السياسة الذي بلغ كماله على يد الامويين ، كل ذلك قد وهبته للعالم مدن لبنان : صيدا والقدس وانطاكية ودمشق ، فانتقل منها الى مصر واليونان وروما واوروبا الحديثة ،ثم عاد من اوروبا الى لبنان عن طريق باريس ..

ويخلص البرت حوراني (ص ٣٨٢) الى القول :

« ليس لهذه اللغة الشعرية سوى علاقة غير مباشرة بالحقيقة . ولو تصدى لهذا الموضوع كتاب النثر لما صدر عن معظمهم مثل هذه الادعاءات الجارفة ، بل لاكتفوا بالقول ان لبنان جزء لا يتجزأ من العالم المحيط بالبحر المتوسط .. »